طرد اليهود من إسبانيا

أميرة عزت عبد الرازق (*)

مقدمة:

إنَّ من أهم الموضُوعات التي تطرَّقت إليها الرواية موضوع طرد اليهود من إسبانيا، وهو موضوع ينفصل بصورة كبيرة عن أحداث الرواية، كما هو معتاد في السمات الفنية لرواية العائلة، فقد أفردت الكاتبة فصلًا كاملًا عنونته باسم "שנת החזיר سنةُ الخنزير"(١)، وفي خضم الأحداث يسرد الراوي الكثير من المفاهيم المتعلقة بطرد اليهود والمسلمين من إسبانيا، ونحاول في هذا المبحث أن نتتبَّع القصة كما وردت في الرواية. فقد جاءت قصة طرد اليهود من إسبانيا في ثنايا الحديث عن أصول عائلة كاستليم التي هاجر كل أبنائها ووصلوا إلى شاطىء غزة ماعدا ابن واحد يقُصُّ هذا الفصل حكايته مع الاضطهاد الاسبانيّ.

أولاً: محاكم التفتيش في إسبانيا:

قبل أن نتطرق إلى رؤية الأديبة تجاه قضية طرد اليهود من إسبانيا كما تجلت القضية في ثنايا الرواية، جديرٌ بنا أولاً أن نتحدث عن محاكم التفتيش في إسبانيا.

كان المسلمون قد فتحوا إسبانيا عام ٧١١م، وبهذا الفتح شهدت إسبانيا مرحلة من أهم المراحل وأخصبها في تاريخها الحديث والقديم؛ حيث وصلت إسبانيا إلى قمة رقيها الحضاري والماديّ، وتحوّلت بذلك إلى مركز إشعاع ثقافيّ يقصده القاصي والداني لينهل من العلوم العربية والإسلامية في الوقت الذي

(*) هذا البحث من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [رواية "الرواية المصرية (הרומן המצרי) "لأورلي كاستل بلوم" ترجمة ودراسة] تحت إشراف أ.د. حمادي عبدالحميد حسين – كلية الألسن – جامعة سوهاج & أ.م.د. سلمى عبد المنعم محمد – كلية الآداب - جامعة سوهاج.

(١) اللافت هنا عنوان الفصل الذي يشكل رمزًا للموضوع، وهو "الخنزير" بوصفه رمزًا للمسيحية؛ أي "عام المسيحية" واضطهاد كل من لا ينتمي إلى الدين المسيحيّ سواء يهود أو مسلمين

كانت تئن فيه أوروبا تحت وطأة الجهل والتخلف، ودام الحكم العربي في إسبانيا ما يقارب ثمانية قرون، ولم يفرق فيها الإسلام بين مسلم أو مسيحي أو يهودي، وعاش الجميع تحت مظلة التسامح الإسلامي يتمتعون بحقوق المواطنة، الأمر الذي أدى إلى تحول الكثير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام طواعيةً[٢].

"لقد بدأ المسيحيون الإسبان الإغارة على مدن الأندلس الإسلامية، ونجحوا في احتلال العديد منها، وخضع اليهود لحكم الإسبان، وحُرموا من الحريات التي سبق أن منحها لهم المسلمون.

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أصبحت اسبانيا خاضعة للحكم المسيحيّ، وحكم على اليهود بالطرد منها"[٣]؛ فعندما بدأت عوامل الضعف والانحلال تدب في أوصال الأندلس الإسلامية، سقطت المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى في يد الإسبان حتى انتهى الأمر بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م التي كانت آخر معاقل الإسلام في إسبانيا.

وبعد هذا السقوط تعهَّد الملكان الكاثوليكيان باحترام بنود معاهدة تسليم غرناطة التي تضمن للمسلمين الإبقاء على أماكنهم ودورهم ومحلاتهم وعقارهم، وإقامة شرائعهم على ما كانت عليه، وأن تبقى المساجد كما كانت وألا يجبر مسلم على ترك دينه ولا يُمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم من أمور دينه؛ إلا أن هذه البنود سرعان ما انتهكت البند تلو الآخر، وبدأ فصل جديد تعرض فيه المسلمون واليهود إلى سلسلة من الاضطهادات والمؤامرات التي لم تُخمد إلا بخروجهم من إسبانيا"[٤].

وعلى إثر ذلك تأسست محكمة التفتيش الإسبانية عام ١٤٧٨م على يد الملكين الكاثوليكيين "فرناندو" و"إيزابيلا"، وكان الهدف من إنشاء هذه المحكمة هو ملاحقة الهراطقة والمارقين الخارجين عن الديانة الكاثوليكية. ولم

---

(٢) أبو داوود، (السيد عبد المنعم)، محاكم التفتيش الإسبانية: الأصول والهيكلية والإجراءات، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد ٣٩، إصدار كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٣١- ٢٣٢.

(٣) متولي، (د. حنان كامل)، صفد مركز القبالاه النظرية والعملية ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣٤، إصدار كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة، يونيو/ ٢٠٠٦م، ص ٤٠٥.

(٤) أبو داوود، محاكم التفتيش الإسبانية، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

تكن فكرة محاكم التفتيش ابتداعًا من إسبانيا، وإنما تأسست أول محكمة تفتيش في أوروبا، وبالتحديد في جنوب فرنسا بعد صدور مرسوم بابوي من قبل البابا "لوثيو الرابع" للسبب نفسه، وهو ملاحقة الهراطقة والمارقين والزج بهم في غياهب سجون محاكم التفتيش. وبالتالي فإن فرنسا هي أول بلد أوروبي يطبق ممارسات هذه المحكمة الكنسية، ثم انتقلت الفكرة إلى باقي أنحاء أوروبا، حيث اعتُبِرَ كل من خالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مرتكباً لجريمة بشعة عقوبتها الموت.

ففي عام ١٤٧٤م اعتلت إيزابيلا عرش قشتالة، وكانت تُعرف بأنها متعصبة للكاثوليكية، وكانت محاطة برجال دين أمثال "توماس دي توركيميدا" أحد الرهبان الدومينيكان الذي أقنعها بضرورة أن تكرس حياتها لاستئصال شأفة الكفرة أعداء المسيح، فانساقت وراء التيارات المنادية بطرد اليهود والمسلمين باعتبارهما تهديدًا للوحدة الدينية والسياسية.

وبزواج فرناندو ملك أراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة استطاع الملكان سويًا توحيد مملكتيهما تحت تاجٍ واحد، والتفكير في القضاء على أعداء إسبانيا الكاثوليكية في الداخل والخارج. وأثناء إقامة الملكة إيزابيلا في إشبيلية عام ١٤٧٧م، أقنع "ألونسو أوخيدا" رئيس محكمة سانتا بابلو الملكة بضرورة اتخاذ إجراءات قمعية ضد اليهود المتنصّرين، وفي العام نفسه وصل إلى الملكة بعض التقارير التي تفيد بوجود عدد كبير من اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية. فاجتمع الملكان ورأيا ضرورة أن يطلبا من البابا إقامة محكمة تفتيش في قشتالة. وفي الأول من نوفمبر من عام ١٤٧٨م وافق البابا على تأسيس أول محكمة تفتيش في قشتالة على أن يقوم الملك بتعيين أعضائها.

وبدأت محكمة التفتيش أول مهامها في البؤر التي ينتشر فيها اليهود مثل إشبيلية وغرناطة. ومن ثم تم القبض على العديد من اليهود.

ففي ٦ فبراير من عام ١٤٧٨م جرى الأمر بحرق ستة يهود أحياء في احتفال جماهيريّ في أكبر ساحات مدينة إشبيلية فيما عرف بـ "حفل الإيمان الأول". وفي أثناء الحفل، قام ألونسو أوخيدا بإلقاء خطبة بعنوان "أعداء المسيح"، وكان لهذه الخطبة أكبر الأثر في تأجيج نار العداوة ضد اليهود مما دفع اليهود إلى الهروب إلى القرى المجاورة. ومنذ ذلك الحين بدأ نشاط محاكم

التفتيش في الاتساع ليشمل كل مدن قشتالة. ففي عام ١٤٩٢م تم تأسيس عدة محاكم في قشتالة: "Avila أفيلة" و"Cordoba قرطبة" و"Jaen جيان"، و"Segovia سيقوبيا"، و"Toledo طليطلة" و"Valladolid بلد الوليد". وفي عام ١٤٨٨م بدأ نشاط المحكمة في برشلونة، وهكذا أخذت رقعة محاكم التفتيش الإسبانية تتسع حتى بلغت خمس عشرة محكمة في نهاية القرن الخامس عشر. ومع اتساع رقعة المحاكم في إسبانيا كلها، وُجِدَ أنه من المناسب إنشاء المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش "Consejo" بحيث يكون خاضعًا مباشرة للملك.

ومارست محاكم التفتيش نشاطًا كبيرًا في تعقب كل ما تراه الكنيسة الكاثوليكية خروجًا عنها لدرجة أن الوثائق تقول إن من تم القبض عليهم ومحاكمتهم من عام ١٤٨٠م حتى ١٥٣٠م بلغ ألفي شخص، السواد الأعظم منهم من اليهود[٥].

ثانيًا: الطرح الروائيّ لحادثة طرد اليهود من إسبانيا:

ترد قصة طرد اليهود من إسبانيا في الرواية المصرية، حيث عنونت "أورلي كاستل بلوم" الفصل الثامن من الرواية بعنوان "שנת החזיר سنةالخنزير"، وكما يتبين من العنوان باعتباره عتبة النص الأساسية، "فالعنوان يكشف عن النص الذي يعتليه"[٦]، يُشير الفصل إلى السنة التي يطلق عليها سنة الخنزير رمزًا لسيادة المسيحية وانتشارها في إسبانيا وطرد اليهود والمسلمين الذين يُحرِّمون الخنزير.

وفي بداية الفصل يسرد الراوي أحداث الطرد من إسبانيا:

(כולנו שמענו ולמדנו על גירוש ספרד. בשנת 1492 החליט הכתר הספרדי להפריד אחת ולתמיד בין היהודים לבין הקונברסוס (הלא הם האנוסים שאחר- כך יטפלו בהם). וכך גם

(٥) أبو داوود، محاكم التفتيش الإسبانية، مرجع سابق، ص ٢٣٣- ٢٣٤.
(٦) النعيمي (محمد جميل)، العنوان في شعر ذنون الأطرقجي: دراسة تحليلية، دار الخليج للنشر، عمّان، ٢٠١٩م، ص ١٧٣.

הפריד הכתר הספרדי בין המוסלמים לבין אנוסיהם שלהם, המוריסקוס.

בספרים רבים יצאו הכותבים מגדרם לספר על אסונם הגדול של היהודים במאה החמש- עשרה – גירוש ספרד והגירוש מפורטוגל בעקבותיו. מאות עמודים נכתבו על האנוסים שהסתירו את יהדותם והורשו להישאר בארצותיהם אך לא ניצלו מרדיפותיה של האינקוויזיציה. ומן הצד האחר, נכתבו תיאורים מפורטים של טלטלותיהם ותלאותיהם של המגורשים, אובדנם וגבורתם. בדרך- כלל מפרטים שם את מסלול הנדידה שלהם ואת ניסיונותיהם המוצלחים או הבלתי- מוצלחים להתיישב במקומות אחרים.

אך קשה להאמין שנקודת- המבט הייחודית על התקופה, זו של ג׳ונתן צדיק מאוניברסיטת ברקלי, חלפה בדעתו של מישהו מלבדו.

במאמר שהפיץ צדיק באמצעות רשת האינטרנט בעשור הראשון של האלף השלישי, הוא הסביר והוכיח ששנת 1492 היתה שנת החזיר בספרד. הוא לא פירט מתי היתה שנת החזיר בממלכות אחרות מלבד ספרד, וגם לא מתי היו בספרד, או בכל הארצות האחרות שהיו אז בעולם, שנת השועל, שנת הדביבון, או שנת הינשוף. מסקנתו היתה תקפה רק באשר לחזיר ורק לגבי ספרד של אותה שנה.

בעשור שהחל ב- 1492 – כתב צדיק מאוניברסיטת ברקלי- הקיאה ספרד מקרבה את שני אויבי החזיר הגדולים שהיו בה, את היהודים ואת המוסלמים) [7]

"كلنا سمعنا عن طرد اليهود من إسبانيا، ففي عام ١٤٩٢م قرّر ملك إسبانيا أن يفصل منذ ذلك الحين فصاعدًا بين اليهود(الأنوسيم) وأتباع الديانات

(٧) הרומאן המצרי, עמ' ٨٥- ٨٦.

الأخرى (وهم الأنوسيم[٨] لذين سيتولون أمرهم فيما بعد أيضًا)، وكذلك فصل الملك الإسباني بين المسلمين والمتنصرين منهم بالمورسكيين[٩].

في كتب كثيرة خرج الكتاب عن موضوعهم ليتحدثوا عن الكارثة الكبيرة التي لحقت باليهود في القرن الخامس عشر الميلادي- الطرد من إسبانيا، الطرد من البرتغال على إثرة. كُتِبَت مِئات الأعمدة عن اليهود المتنصرين، وعن يهوديتهم التي أخفوها لكي يُسمَح لهم بالبقاء في أرضهم، لكنهم لم ينجوا من اضطهاد محاكم التفتيش. وعلى الجانب الآخر، كُتبت تصورات مفصلة عن تشتت المطرودين ومتاعبهم وضياعهم وبطولاتهم. بصفة عامة، كتبوا بالتفصيل عن مسار تجوالهم ومحاولاتهم الناجحة أو الفاشلة للاستقرار في أماكن أخرى. لكن من الصعب تصديق أنَّ وجهة النظر الوحيدة عن هذه الفترة هي وجهة نظر "جوناتان تساديق" من جامعة بركلي، وأنها جالت بخاطره هو وحده!

لقد نشر تساديق وأثبت في المقال الذي نشره عبر الإنترنت في العقد الأول من الألفية الثالثة أن سنة ١٤٩٢م هو عام الخنزير في إسبانيا. إنه لم يُفصّل متى وقع عام الخنزير في الممالك الأخرى باستثناء إسبانيا، ولا حتى متى كان بإسبانيا، أو في البلدان الأخرى التي كانت موجودة في العالم حينها، كانت

---

(٨) האנוסים: الأنوسيم": وهم يهود أوروبا الذين تم إجبارهم على تغيير ديهم إلى الكاثوليكية المسيحية. وقد وُجِدَ الأوائل منهم في القرن الخامس الميلاديّ في جزيرة مايوركا وفي القرن السادس والسابع الميلاديين في فرنسا، واعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادي كانوا متواجدين في إسبانيا والبرتغال وعُرِفُوا باسم "מרנוס المارانوس" (أي الخنزير باللغة الإسبانية) أو "מומרים: موماريم" (أي مرتدون عن دينهم) أو "נוצרים חדשים: النصارى الجدد". وقد حافظ عدد لا بأس به منهم على يهوديته سرًا، ومارسوا الطقوس اليهودية. انظر: الشامي (د. رشاد)، موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٤٨.

(٩) المورسكيون: كلمة "Morisco موريسكو" من اللغة القشتالية، وهي تطلق على المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية عنوةً خلال محاكم التفتيش لكي يبقوا في إسبانيا. وقد أجمع العديد من المؤرخين ودارسي علم الاجتماع والأجناس على أن الأقلية المورسكية التي بقيت على أرض شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) بعد تسليم غرناطة عام ١٤٩٢م كانت تشكل شريحة بشرية غير متجانسة مع الإطار العام الذي كان يُسمى آنذاك بإسبانيا المسيحية. انظر: حمادي (د. عبد الله)، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (١٤٩٢- ١٦١٦م)، ط٢، دار الألمعية للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، ص ٩- ١٠.

سنة الذئب وسنة حيوان الراكون أو سنة البومة، لكن فقط هذه السنة في إسبانيا.

كتب تساديق من جامعة بركلي أنه في العقد الذي بدأ فيه عام ١٤٩٢م لفظت إسبانيا من جوفها أكبر عدوين للخنزير وهم اليهود والمسلمين".

كما يتضح من الشاهد السابق، يسرد الراوي سبب تسمية عام الخنزير بهذا الاسم، واتضح أن هذه التسمية تعود إلى الباحث "جوناتان تساديق" الباحث في جامعة بركلي الذي أسماه بهذا العام لأنه العام الذي تخلصت فيه إسبانيا من أكبر عدوين للخنازير، وهم اليهود والمسلمين، الذين يُحرِّمون أكل الخنزير.

وكانت الأندلس في العصر الإسلامي تحظُر لمس الخنازير أو تربيتها أو أكلها، وهو ما ذكرته الأديبة في الرواية:

(עלינו לזכור כי כשספרד היתה מוסלמית היה החזיר האיברי השעיר והחתום- כהה מוקצה מחמת מיאוס. נאסר לגדל אותו, וגידלו אותו ואכלו אותו רק במנזרים בודדים, במקומות שכוחי- אל.

המלומד מצפון – אמריקה מביא נתון נוסף: בשנה שבה גורשו היהודים מספרד יצא גם קולומבוס למסע שבו הגיע לאמריקה. ומה הוא לקח איתו? הוא לקח איתו שמונה חזירים איבריים, שהשאירם ביבשת החדשה. סופם של החזירים הללו שהתרבו בכל רחבי אמריקה, ויחד עם גילוי הפלפל האדום החריף והמעושן אף הומצא הצ'וריסו, שאפשר לבשר חזיר מזין וזול להגיע אפילו למעמדות הנמוכים) [10]

"علينا أن نذكُر أن إسبانيا عندما حينها، وكان يُربَّى ويؤكل في أديرة قليلة وفي أماكن نائية وبعيدة.

ويأتي هذا الخبير بمعلومة أخرى تتمثل في أنه في السنة التي طُرد فيها اليهود من إسبانيا، خرج كولومبوس في رحلته التي وصل فيها إلى أمريكا. فماذا أخذ معه؟ لقد أخذ معه ثمانية خنازير إيبيريَّة تركها في القارة الجديدة. تكاثرت

(١٠) הרומאן המצרי، עמ' ٨٦.

هذه الخنازير في أنحاء أمريكا، ومع اكتشاف الفلفل الأحمر الحار، وكذلك المدخن تم اختراع الشوريزو، حتى يمكن للحم الخنزير المغذي زهيد الثمن أن يصل إلى الطبقات الدنيا".

يُعزِّز الراوي من فكرة تسمية عام طرد اليهود والمسلمين من إسبانيا بعام الخنزير، بذكر كريستوفر كولومبوس وأخذه معه خنازير إيبيرية لكي تتكاثر هناك في قارة أمريكا، حتى لا تنقرض الخنازير التي تعد رمزًا للاعتقاد المسيحيّ في الرواية.

وتذكر الأديبة كل هذه التفاصيل عن طرد اليهود من إسبانيا، وتربطها بأحداث الرواية، حيث تأتي هذه القصة في إطار سرد قصة عائلة الأب، فقد كان الأب من عائلة "كاستيل" التي طُردت من إسبانيا بعد الأحداث التي تعرض لها اليهود هناك [١١]. فتسرد لنا الكاتبة قصة هذه العائلة وكيف تعاملت مع محاكم التفتيش، فتقول:

(גם המעשה שלהלן אירע באותה שנה, או שנה מאוחר יותר, ולכל היותר שנתיים. אכן, שבעה אחים קאשתילים הצליחו לשרוד את גירוש ספרד ולהגיע לבסוף לחוף מבטחים בעזה, אבל למען האמת, במקור היו שמונה אחים קאשתילים, ואת סיפורו של האח השמיני שנביא כאן מעדיפה המסורת המשפחתית להעלים, בצדק או שלא בצדק.

רוב בני משפחת קאשתיל ישבו באותם ימים בעיירה טורי דה מורמוחון שבקסטיליה, או קשתאלה בפי ההיסטוריונים הערבים. לבן הבכור, יודה, היה מפעל משגשג לייצור סבון מצמח הלבנדר. סביב המפעל הזה שייסד אביו או בקרבתו התפרנסו ברווחה כלכלית גם בני המשפחות של שבעת אחיו, אשר חלקם עסקו בטיפוח השדות הנרחבים של הפריחה הסגולה הבלתי – נלאית. האחרים גידלו צאן ורעו אותו, בעיקר

([١١]) לבבי، המשפחה שלא יצאה ממצרים קריאה ב"הרומן המצרי" של אורלי קסטל-בלום، שם.

כבשי מורינו. נשותיהם עסקו בסריקת צמר או בייצור בדים) (١٢).

"وقع الحدث التالي أيضًا في السنة نفسها أو في السنة التالية لها، أو بعد سنتين على أقصى تقدير، فقد نجح سبعة إخوة من عائلة كاستيل في النجاة والوصول إلى بر الأمان في غزة، ولكن لأجل الحقيقة وفي الأصل هم ثمانية إخوة، أما قصة الأخ الثامن، التي سنذكُرُهَا الآن، فتفُضّل التقاليد الأسرية تجاهلها عن حق أو غير حق.

لقد استقر أفراد عائلة كاستيل في تلك الأيام في بلدة توريه دي مورموحون في مدينة كاستيليا أو قشتالة كما ينطقها المؤرخون العرب. وكان الابن الأكبر "يودا" يمتلك مصنعًا مزدهرًا لإنتاج الصابون من نبات اللافندر. حول هذا المصنع الذي أسسة والده وجد أفراد أسر الإخوة السبعة مصدرًا للرزق الوافر، حيث عمل جزء منهم في رعاية الحقول الواسعة التي تحتوي على النباتات البنفسجية التي لا تكل. أما الآخرون فقد قاموا بتربية الأغنام ورعايتها، وخصوصًا الأغنام الإسبانية. كما عمل نساؤهم في نسج الصوف أو في إنتاج الأقمشة"

تسرد الكاتبة قصة استقرار عائلة كاستيل في مدينة قشتالة الإسبانية وامتلاك الابن الأكبر "يودا" لمصنع كبير لإنتاج الصابون، وحول هذا المصنع كان الإخوة السبعة في عائلة كاستيل يرتزقون ويعيش أفراد أسرتهم من هذا المصنع، وكل هذا يعطي للقارىء خلفية عن أحوال اليهود في إسبانيا قبل محاكم التفتيش والاضطهاد لليهود والمسلمين في إسبانيا، وقبل قرار الملك "فرناندو" وزوجته "إيزابيلا" بضرورة تغيير اليهود لهويتهم الدينية واعتناق المسيحية الكاثوليكية، الذي تقص الأديبة تبعات إصداره على عائلة كاستيل:

(מייד אחרי שהמלך פרננדו ואשתו המלכה איזבלה פירסמו את הצו שקבע שעל היהודים להמיר את דתם לדת הקתולית, או לעזוב את קסטיליה וארגון תוך ארבעה חודשים, שלח בכור האחים, יודה, את בתו אסתר לזמן את בני-

(١٢) הרומאן המצרי، עמ' ٨٦- ٨٧.

המשפחה להתוועדות לילית דחופה וחשאית. היה לילה קר מאוד. בני- המשפחה הגיעו מכל עברי טורי דה מורמוחון, והבל נשיפותיהם נראה לרגע ומייד נעלם.

הגיעו כמעט ארבעים איש. אנשים מתארחים זה אצל זה בשבתות ובחגים, ופוקדים זה את זה בעת אבל, אך אספה חשאית ודחופה כזאת לא חוו מעודם. יודה דיבר לאט ובקול שבור ואמר שהוא רואה את הנולד, וכי אינו מאמין שדון יצחק אברבנאל שר האוצר של פרננדו ואיזבלה יצליח לשכנע אותם לבטל את רוע הגזרה, לכל היותר הוא ישיג איזושהי ארכה, ומה הטעם לדחות את הקץ?

הוא בא לפגישה לאחר שכבר גמלה החלטה בלבו: יש לעזוב תיכף ומייד, מבלי למצות את הזמן שעוד נותר להם. עליהם לנוס על נפשם לפני שכל היהודים ידפקו על דלתות היציאה ומרוב צפיפות ובהלה לא יהיה אפשר לדעת מה לעשות קודם. האחים סברו שאם אחיהם הבכור המוצלח הגאה במפעל הסבון המשפחתי ובמומחיותו שלו, ונפשו כה קשורה בטורי דה מורמוחון ובשדות הלבנדר הסגולים- אם אחיהם פוסק שיש לברוח, אין להטיל ספק בדעתו. ברור שאיש מן האחים קאשתיל ומבני המשפחה לא העלה על דעתו את האפשרות של המרת הדת.

עשרים ימי הכנה נתן להם יודה, ואף קבע עם רבם, רבי יצחק אבוהב, שיצטרף אליהם ועמו לא מעט מחסידיו) [١٣].

"وفورا بعد أن أصدر كل من الملك فرناندو وزوجته الملكة إيزابيلا أمرا بإجبار اليهود على التحول من دينهم إلى الكاثوليكية،أو لن يكون أمامهم سوى الرحيل عن كاستيليا وآراغون في غضون أربعة أشهر، قام الابن الأكبر، يودا، بإرسال ابنته إستير لكي تستدعي أفراد الأسرة لاجتماع ليليّ عاجل وسريّ. كانت

(١٣) הרומאן המצרי، עמ' ٨٧- ٨٨.

ليلة باردة للغاية. وأتى أفراد الأسرة من جميعِ أنحاء توريه دي مورموحون، وكان البخار المتصاعد من شهيقهم يبدو في لحظة ثم يختفي على الفور.

وصل حوالي أربعون شخصًا، أشخاص يتضايفون عند بعضهم البعض في أيام السبوت والأعياد، ويواسون بعضهم في الملمات والنوازل، لكنهم لم يمروا باجتماع عاجل وسري كهذا مطلقًا. تحدّث يودا برويّة وبصوت منكسر، وقال إنه يرى المستقبل، وأن السيد يتسحاق أبرابانيل وزير مالية الملك فرناندو والملكة إيزابيلا سينجح في إقناعهما بإلغاء شرور المرسوم، على أقصى تقدير سيحصل على مهلة، وما فائدة تأجيل النهاية؟

لقد جاء إلى هذا الاجتماع بعد أن قرر في قرارة نفسه أنه يجب الرحيل على الفور، دون انتظار ما تبقى لهم من وقت. عليهم اللوذ بأنفسهم قبل أن يطرق كُل اليهود أبواب الرحيل ووقتها من شدة الازدحام والفزع لا يمكن أن نعرف ما سنفعله أولًا. اعتقد الإخوة أن أخيهم الأكبر الناجح الذي يتباهى بمصنع الصابون العائلي وبخبرته وهو مرتبط بتوريه مورموحون وبحقول اللافندر البنفسجية، إذا قرر أنه يجب الهروب، فلا يمكن التشكيك في رأيه. فمن الواضح أنه ليس هناك أحد من الإخوة كاستيل أو أفراد الأسرة يخطر على باله إمكانية تغيير دينه.

منحهم يودا عشرين يومًا يجهزون فيها أنفسهم، واتفق مع حاخاماتهم، الحاخام "يتسحاق أفوهاف" أن ينضم إليهم مع عددٍ ليس بالقليل من أتباعه".

يصف المشهد الروائيّ تداعيات الأمر الملكيّ بإجبار اليهود على التحول إلى المسيحيّة الكاثوليكية ووقع الحدث على عائلة كاستيل التي اجتمع بها الأخ الأكبر في العائلة "يودا" لكي يخبرهم بضرورة مغادرة "توريه دي مورموحون" على وجه السرعة لأنه يتنبأ بالأحداث التي سيمر بها اليهود في هذه البلاد وحينها سيصبح الرحيل صعبًا للغاية، ومنحهم يودا عشرين يومًا يجهزون فيها أنفسهم للرحيل.

وقررت العائلة وجهتها بعيدًا عن إسبانيا فقرروا الذهاب إلى البرتغال التي تعد أقرب بلد من إسبانيا، فيقول الراوي:

(הקאשתילים החליטו לעבור לפורטוגל הסמוכה ולהשתקע בקרב יהודיה. תחילה הם ישבו שם בשקט, ואחר-

כך ינסו לקנות שדות ולהקים מחדש את המפעל של סבון הלבנדר. ככל שימהרו לעזוב, כך ישיגו מחירים גבוהים יותר תמורת רכושם, והם ייקחו איתם צידה לדרך, בדים, וכמובן מטבעות זהב.

הוחלט ששרה אשתו של יודה תתפור להם ארנקים שקשורים לגוף- לכולם, עד לאחרון העוללים. לאלה היא תרקום אפרוחים על הארנקים, חשבה בינה לבין עצמה, כדי שידעו שבאו מבית ששרר בו השפע, וגם שאהבו אותם בו.

היא חשה שמרגע שהם עוזבים את טורי דה מורמוחון – אין לדעת מה יקרה להם. ואכן היא נהגה בתבונה ומתוך ראיית הנולד. בדיוק אלה היו, בסופו של דבר, התינוקות שנלקחו למשפחות טובות. ובאשר למבוגרים – לא פעם קרה שבן קאשתיל אחד רוקן את ארנק הבת של בן קאשתיל אחר, אותו ארנק ששרה תפרה בשבילו, דקה אחרי שהשני החזיר את נשמתו לבורא) [١٤].

"قرّر الكاستيليون أن ينتقلوا إلى البرتغال القريبة ويستقروا في وسط يهودها. وفي البداية سيستقرون هناك بهدوء، وبعد ذلك سيحاولون شراء حقول وإنشاء مصنع صابون لافندر من جديد. وكلما أسرعوا في الرحيل كلما حصلوا على سعر أعلى مقابل ممتلكاتهم، وسيأخذون معهم مؤنًا للطريق وأقمشة، وبالتأكيد عملات ذهبية.

وتقرر أن تقوم "سارة" زوجة يودا بحياكة حقائب تلتصق بالجسد للجميع، حتى جميع الأطفال. فقد حاكت للأطفال شكل كتكوت على الحقائب، ظنا بينها وبين نفسها أنهم بهذه الطريقة سيعرفون أنهم جاءوا من بيت كرم، نالوا فيه الحب.

لقد شعرت منذ اللحظة التي تركوا فيها توريه دي مورموحون أنه لا يمكن التنبؤ بما سيحدث لهم. حقًا، لقد كانت تتصرف من خلال وعي وبعد نظر.

([١٤]) הרומאן המצרי، עמ' ٨٨-٨٩ .

وفي نهاية الأمر، كان هؤلاء الرُّضَّع الذين تم اصطحابهم إلى عائلاتهم الطيبة. فيما يخص الكبار منهم حدث أكثر من مرة أنَّ أحد أفراد عائلة كاستيل أفرغ الحقيبة القماشية التي حاكتها سارة لفردٍ آخر من العائلة بعد أن فارق الحياة".

لم تكن عائلة كاستيل هي الوحيدة التي اتجهت إلى البرتغال هربًا من محاكم التفتيش الإسبانية؛ بل اتجهت الكثير من العائلات اليهودية إلى البرتغال في أعقاب الأمر الملكيّ الخطير، وكان الانتقال إلى البرتغال أملاً في الخلاص من الاضطهاد المسيحيّ، ولكن من المعروف أن محاكم التفتيش طالت اليهود والمسلمين حتى وصلت إلى البرتغال [١٥]، وهو ما أكدته الرواية في خضم ما سردته عن مصير عائلة كاستيل عند انتقالها إلى البرتغال:

(הקאשתילים יצאו אפוא מצוידים בכל מה שניתן לקחת- תחילה צפונה, ואחר- כך מערבה לפורטוגל. הם הצטרפו לעוד קבוצות של יהודים שחשבו שפורטוגל היא הפיתרון. אלא שעד מהרה התברר להם שהם תמימים וכי הרעיון להתמזג עם הקהילה היהודית בפורטוגל היה אשליה מרה. לפורטוגלים היו יהודים משלהם, והם לא היו זקוקים לעוד "זעומי פנים". הקאשתילים הנסים על נפשם נדהמו מיחסם המזלזל. אלה כלל לא הבחינו שלא אספסוף הגיע אליהם, אלא יהודים מכובדים, שלאחד מהם אפילו יש באמתחתו ידע על ייצור סבון קשה, מהטובים בחצי האי האיברי.

(١٥) لقد وصلت محاكم التفتيش إلى البرتغال أيضًا، فقد بدأت هذه المحاكم عملها حوالي عام ١٥٤٧م في عهد الملك جوان الثالث، حيث أدخل هذا الملك ذلك الديوان الخاص المعروف بقسوته وعتوه في محاربة من خالفه، ونعني بذلك الديوان ديوان التفتيش أو محكمة التفتيش. وكان ذلك الملك يأتي إلى ساحة المدينة التي كان يحرق فيها من حكمت عليهم محاكم التفتيش بالحرق والعذاب، وكان الملك يصحب الملكة والوزراء ورجال الدولة وكبار رجال الدين، فيتبوءون مجالسهم في مكان مرتفع مُزيَّن بأحسن زينة ليمتعوا النفس بمناظر التعذيب وحرق إخوانهم في البشرية وهم أحياء. انظر: مظهر (د. علي)، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وغيرهما، المكتبة العلميَّة، ١٩٩٦م، ص ٦١

ראו בהם סרח עודף, פליטים מוקצים שיש לבודדם, והקימו בשבילם מחנות שתנאי החיים בהם היו ירודים. רבים מהם מתו במגפות של מחלות וביניהם גם הרב יצחק אבוהב. שרה אף היא כמעט מתה במחנה הפליטים אך שרדה. וחלו והבריאו גם בעלה ושלושת ילדיה: התאומים נסים ונתן, ואסתר הבכורה) [١٦].

"إذن، خرج الكاستيليون مزودين بكل ما يمكن أخذه، في البداية صوب الشمال مُتَّجهين شمالاً ثم غرباً إلى البرتغال. انضموا إلى مجموعات أخرى من اليهود الذين اعتقدوا أن البرتغال هي الحل. إلا أنه سرعان ما اتضح أنهم سُذِّج وأن فكرة الاندماج مع الطائفة اليهودية في البرتغال ما هي إلا وهم مرير. كان البرتغاليون لديهم يهودهم، ولم يكونوا بحاجة إلى مزيد من "المتجهّمين". اندهش الكاستيليون الفارين بأنفسهم من تعاملهم المستهين بهم. لم يميز هؤلاء أنهم لم يصِل إليهم مجموعة من الغوغاء؛ بل يهود محترمون، أحدهم يمتلك في جعبته معرفة بخصوص إنتاج الصابون الصلب الذي يعد من أجود أنواع الصابون في شبه الجزيرة الإيبيرية.

لقد اعتبروهم زيادة لا حاجة لهم بها، ولاجئين منبوذين يجب عزلهم، فأقاموا لهم مخيمات ظروف المعيشة فيها صعبة. وتوفي الكثير منهم جرّاء إصابتهم بالأوبئة، ومن ضمنهم الحاخام يتسحاق آفوهاف. حتى سارة كانت على وشك الموت في مخيم اللاجئين، ولكنها نجتْ. مرض زوجها وأبناؤها الثلاثة وتعافوا، التوءم: نسيم وناتان وإستير الابنة الأكبر".

من خلال الشاهد السابق، تصوِّر لنا الرواية أوضاع اليهود الذين هاجروا من إسبانيا إلى البرتغال هربًا من محاكم التفتيش، إلا أنَّ البرتغاليين كان استقبالهم لليهود سيئًا واعتبروهم مجرد لاجئين غوغاء يجب التخلص منهم بوضعهم في مخيمات نتنة يُصابون فيها بالأوبئة التي قد تودي بحياة الكثيرين منهم، وتسرد الرواية فصول من المعاملة الوحشية مع اللاجئين:

([١٦]) הרומאן המצרי، עמ' ٨٩ .

(כעבור ימים לא רבים נכנעו שלטונות פורטוגל ללחץ התושבים והעלו את הפליטים ששרדו בחיים לעשרים – וחמש ספינות גדולות, על מנת שיובילו אותם הרחק ככל האפשר.

דברי הימים מספרים סיפורים מסמרי שיער. לכמה מן האוניות היו קברניטים אכזרים, שהורידו יהודים במדבריות של צפון – אפריקה ובאיים נידחים בים התיכון, ולא שעו לתחנוניהם להחזירם לספינה. ילדים ונשים נחטפו, פוזרו, ונמכרו להיות שפחות ועבדים.

לעיר מאלגה הגיעה ספינה מלאה יהודים שבעי תלאות ורזים כשלד. ביניהם היתה המשפחה של יודה ושרה. יהודים כמובן, לא יכלו לעלות אל החוף, אלא אם כן יתנצרו. יום- יום היה כומר עולה לאונייה ושואל את הנוסעים אם הם כבר מוכנים להתוות את הצלב. זה היה סיוט אינו נגמר. אדם רעב ומיוסר אומר לא – לא – לא, ולבסוף הוא אומר, "כן". קברניט הספינה בא אל יודה ואל שרה בהצעה שלא יכלו לסרב לה: שימכרו לו את בתם אסתר – תמורת סכום שהיה לא הרבה ולא מעט. ההצעה היתה הרע במיעוטו, כי בתאומים נסים ונתן לא נגעו. הם ניאותו מתוך ייאוש גדול, ובעידודה של אסתר- עצמה. אסתר הלכה אל גורלה מבלי לעשות רעש. ועד מהרה היא נמכרה הלאה, במחיר גבוה יותר, מאחר שהיתה בריאה וגם יפת- תואר.

יום אחרי ששרה נאלצה להיפרד מבתה, הלבין כל שערה בלילה אחד, ובבוקר ראתה שחריצים עמוקים של עצב נתלמו לאורך פניה. יודה אמר לה שבתם קדושה והקריבה את עצמה למען משפחתה, מעשה השקול למוות על קידוש השם, אך שרה לא מצאה בכך שום נחמה) [١٧].

([١٧]) הרומאן המצרי، עמ' ٨٩ - ٩٠.

"بعد مرور أيام ليست بالكثيرة، خضعت السلطات البرتغالية لضغوط السكان وأقلّوا اللاجئين الذين نجوا على خمسٍ وعشرين سفينة كبيرة، لكي تنقلهم بعيدًا قدر الإمكان.

يحكي التاريخ قصصًا تشيب لها الرؤوس، فقد كان عددًا من السفن يقودها ربانية متوحشون قاموا بإنزال اليهود في صحراء شمال إفريقيا، وفي جزر نائية في البحر الأبيض المتوسط، ولم يلتفتوا إلى توسلاتهم لإعادتهم للسفينة. خطف أطفال ونساء، وفرقوا وبيعوا عبيدًا وإماءً.

وصلت إلى مدينة "ملقا" سفنية مليئة باليهود المُحمَّلين بالمتاعب والنحيفين مثل الهياكل. كان من بينهم أسرة يودا وسارة. لم يستطع اليهود بالطبع أن يقفزوا إلى الشاطىء لئلا يتنصّروا. وكل يوم، كان يصعد راهب إلى السفينة ويسأل الركاب هل هم مستعدون أن يضعوا الصليب على صدورهم. كان كابوسًا لا ينتهي. شخص جائع يُعذَّب يقول: "لا.. لا.. لا" وفي النهاية يقول: نعم. جاء ربان السفينة بعرض لا يستطيعون رفضه، وهو أن يبيع لهم ابنته إستير مقابل مبلغ من المال لم يكن بالكثير أو القليل. كان العرض هو أسوأ الشرَّيْن؛ لأنهم لم يمسُّوا نسيم وناتان. لقد وافقوا وهم يشعرون بيأسٍ شديد، وبتشجيعٍ من إستير نفسها. ذهبت إستير إلى مصيرها دون أن تحدث أي ضجَّة. سرعان ما بيعت لاحقًا بسعر كبير، حيث كانت تتمتع بالصحة وجميلة.

وبعد يومٍ من اضطرار سارة ترك ابنتها، ابيضّ شعرها في ليلة واحدة، وفي الصباح رأت شقوقًا عميقة من العصب امتدّت بطول وجهها. قال لها يودا إن بنتهم مُقدسة ضحّت بنفسها من أجل عائلتها، وهذا العمل يضاهي الموت في سبيل الرب، إلا أنَّ سارة لم تجد سلواها في هذا الكلام".

يمكن اعتبار هذه القصة قصة تاريخية مزيفة، فهي "توظّف أحداث واقعيَّة تاريخيًا وتهدف من خلالها إلى إثارة قضية، فشخصية إستير، بكل حمولاتها الرمزية التي تشير إلى فكرة التضحية اليهودية، هي ابنة عائلة يهودية

إسبانية غنية تم طردها من إسبانيا عام ١٤٩٢م، وهي تُضحِّي بنفسها من أجل عائلتها وتُبَاع إلى ربان سفينة مقابل مبلغ كبير من المال(١٨).

وتستعمل الأسرة المال للعودة إلى إسبانيا والتعافي، وللعيش حياة يهودية هناك(١٩)، وتتظاهر بالتنصُّر حتى لا يتم التخلص منهم، حتى أنهم غيروا أسماء أبنائهم إلى أسماء إسبانية، ولكن ظل شعور الأم بالذنب تجاه إستير:

(כעבור עוד יום נכנעו שני ההורים והתאומים והתנצרו. ואז הם חזרו לטורי דה מורמוחון האהובה והצליחו לרכוש בחזרה חלק ניכר מרכושם, ולא מעט מזה התאפשר הודות לכספי המכירה של אסתר...

יודה רצה להכניס את התאומים לעבודה במפעל הסבון, אך שרה סירבה לכך, ורצתה שיישארו כל העת איתה בבית, כי פחדה להיות לבד. הפחד הזה היה דבר חדש, והחל רק אחרי שחזרו לעיירה.

יום אחד היא סיפרה לכומר דה מנדוסה, במסגרת סקרמנט הווידוי, על אשר אירע עם בתם אסתר, ועל האשמה הנוראה שהיא חשה.

"בבית", אמרה לו שרה מבלי לראות את פניו, "לא מזכירים את שמה, ואפילו את החדר שלה שינינו לגמרי. אנחנו שותקים, אבל בעלי אינו יותר מי שהיה, ואני איני מסוגלת להישאר לבד בבית והורסת לדיגו ופדרו את החיים. אני יודעת שבגלל מה שעשיתי לאסתר אלך לגיהינום. גם בתור יהודייה הייתי הולכת לגיהינום".

דיגו ופדרו היו שמותיהם החדשים של התאומים נסים ונתן- אבל לא בתוך הבית.

---

(١٨) לבבי، המשפחה שלא יצאה ממצרים קריאה ב"הרומן המצרי" של אורלי קסטל-בלום، שם

(١٩) לבבי، המשפחה שלא יצאה ממצרים קריאה ב"הרומן המצרי" של אורלי קסטל-בלום، שם

״את הצלת את כל משפחתך מגיהינום״, אמר לה דה מנדוסה. ״בלילות אני חולמת שהיא חוזרת״, אמרה והשתנקה והחלה להתייפח ארוכות, והתייפחותה העניקה לדה מנדוסה זמן לחשוב. הוא אמר לה:

״את מבטיחה שאם אסתר תחזור תעשי את כל הסקרמנטים מעל לנדרש?״

״מה זאת אומרת? בלי שום ספק. אני מבטיחה שאעשה מעל ומעבר לנדרש״, אמרה. ״אהיה למופת לקונברסוס בכל קסטיליה״, הכריזה והבטיחה.

״אני אבדוק מה ביכולתי לעשות״, אמר דה מנדוסה שרה לא ידעה אם הוא מדבר מתוך אחריות או רק מתוך כוונות טובות להרגיעה. אבל דה מנדוסה טוב - הלב הפעיל אצ קשריו בכנסייה ובמנזרים הבנדיקטינים שבאחד מהם שהה בנעוריו ולא הניח לעניין) [٢٠].

"بعد مرور يوم آخر، استسلم الوالدان والتوءم أن يستسلموا وتنصروا. وحينها عادوا إلى توريه دي مورموحون المحببة إلى قلوبهم، ونجحوا في شراء جزء كبير من ممتلكاتهم مرة أخرى، وتمكنوا من ذلك بفضل الأماول التي تحصَّلوا عليها من بيع إستير ابنتهم...

أراد يودا أن يشغل التوءم في مصنع الصابون، لكن سارة رفضت، وأرادت أن يبقيا طيلة الوقت معها في البيت؛ لأنها خافت أن تبقى وحدها. كان هذا الخوف شيء جديد، بدأ عندما عادوا إلى البلدة.

ذات يومٍ روت للراهب دي مندوسا، خلال شعيرة الاعتراف عما حدث لابنتهما إستير، وعن الذنب الرهيب الذي تشعُر به.

قالت له سارة دون أن ترى وجهه: "لا نذكُر اسمها، حتى غرفتها غيّرناها تمامًا. إننا صامتون، وزوجي لم يعد كما كان، وأنا لا أستطيع أن أبقى

([٢٠]) הרומאן המצרי، עמ' ٩١ - ٩٢ .

وحدي في البيت؛ والآن أدمّر حياة دييجو وبيدرو. إنني أعرف أنني بسبب ما فعلته بإستير سأدخل جهنم حتى كيهودية كنت سأدخل جهنم".

دييجو وبيدرو كان الأسماء الجديدة للتوءم نسيم وناتان لكن ليس داخل البيت.

قال لها دي مندوسا: "أنتِ أنقذتِ كل أسرتك من الجحيم".

قالت: "إنني أحلم ليلًا أنها تعود". قالت وهي تختنق وبدأت تنوح طويلاً، منح نواحها دي مندوسا وقتاً كي يفكر، وقال لها: "أتعديني إذا عادت إستير أن تؤدي كل الشعائر أكثر مما هو مطلوب منك؟"

قالت: "ماذا يعني هذا؟ بكل تأكيد. أعدك أن أؤدي الشعائر أكثر من المطلوب"، كما أعلنت وأكدتْ: "سأكون نموذجًا لمن غيَّر دينه في كاستيليا كلها".

قال دي مندوسا: "سأتحرَّى ما بإمكاني فعله".

لم تعلم سارة ما إذا كان يتكلم بمسئولية أم من خلال نوايا طيبة لتهدئتها. استخدم مندوسا طيب القلب علاقاته في الكنيسة والأديرة البنديكتيَّة، الذي أقام في أحدها في شبابه ولم يترك الموضوع".

ولكن فيما بعد تكتشف الأسرة أن إستير، التي توِّجت بلقب "شهيدة"، استمتعت بالفعل بأسرها وأصبحت راعية خنازير، وتقترح على عائلتها أن تواصل المهنة نفسها في إسبانيا أيضًا، الأمر الذي سيزيل تمامًا أي شُكُوك من جانب محاكم التفتيش بأن العائلة تحتفظ بسرية هويتها اليهودية[٢١]، كما نجد في الشاهد التالي:

(לבסוף נמצאה אסתר בריאה ושלמה באי קטנטן בשם "האי של טריפה", הקצה הדרומי ביותר של אירופה בין צוק גיברלטר לצפון- אפריקה ואילו הספרדים עודדו את ההתיישבות שם, כמגן מפלישת אויבים מצפון – אפריקה, ואילו הכנסייה העניקה תמריץ לכל מי שישב באי של טריפה לפחות שנה: סליחה ומחילה בדיעבד וגם בראש.

([٢١]) לבבי، המשפחה שלא יצאה ממצרים קריאה ב"הרומן המצרי" של אורלי קסטל-בלום، שם.

הקברניט חואן לופז, סיפרה אסתר, מכר אותה, עוד ביום שבו קנה אותה, לבאסקי בשם פרנסיסקו מליאדו, אשר המתין על החוף. אסתר, שנועדה להיות שפחה, הרתה לו ונמלטה ממנו, ובבריחה הפילה את התינוק. הוא רדף אחריה והחזיר אותה, אולם היא היתה חולה מאוד אחרי ההפלה. אז מסר אותה מליאדו לאחותו אלווירה באי של טריפה. חרונימו בעלה החירש- אילם של האחות, היה שם שומר המגדלור.

בטריפה הובאה אסתר לחיק הנצרות בפעם השנייה. היא הבריאה אט- אט בסיועה של אלווירה נעימת- הסבר, וגם למדה ממנה איך לגדל חזירים איבריים, מה הם אוכלים, וכמה הם סקרנים וחכמים. אלווירה לימדה אותה גם את שפת הגוף שלהם, ואיך לאלף אצ החזיר, באמצעות מקל מתאים, להיות תמיד מימין למקל ולא לסטות מדרכו. ובכלל, אלווירה העמידה אותה על הרגליים ולימדה אותה דברים רבים, הן על החיים והן על החזירים...

אסתר המליצה לבני המשפחה לגדל עדר של חזירים איבריים בטורי דה מורמוחון. כי לא רק שהדבר יהיה רווחי ביותר, אלא הוא גם יוכיח לכל דכפין שהתנצרותם שלמה, ולא יהיה צורך להסביר לאיש מדוע הם שוטפים את עצמם ואת ביתם ביום שישי, או מפרידים את גיד הנשה מהבשר.

״אם יהיה לנו עדר כזה, אמא״, פנתה אסתר אל שרה, שהיתה משותקת מן ההתנפלות החדשה של העובדות ומהשפעתן עליה ועל חייה, ״אף אחד לא יעז להסתבך איתנו. סמכו עליי. למדתי המוו אצל אלווירה, ואני יכולה לטפל בחזירים כאלה, בתנאי שתכינו לי דיר) [٢٢].

([٢٢]) הרומאן המצרי، עמ' ٩٢- ٩٤.

"في النهاية، عُثِرَ على إستير سالمة متعافية في جزيرة صغيرة تدعى "طريفا" في الطرف الجنوبيّ من أوروبا، بين صخرة جبل طارق وشمال إفريقيا. شجّع الإسبان على الاستقرار هناك كحائط صد لهجمات الأعداء من الشمال الإفريقيّ، بينما منحت الكنيسة حافز لكل من استقر في جزيرة طريفا على الأقل سنة: العفو والغفران عمّا تقدم وتأخر.

حكت إستير أن الربان "خوان لوبيز" قد قام ببيعها في نفس اليوم الذي اشتراها فيه، لرجل من إقليم الباسك يُدعى "فرانسيسكو ماليادو"، كان ينتظر على الشاطىء. كان من المفترض أن تكون إستير جاريةً له، حملت منه، وهربت، ثم أجهضت طفلها في أثناء هربها. تعقبها وأعادها، لكنها كانت مريضة جدًا بعد الإجهاض. حينما سلمها لأخته إليفيرا في جزيرة طريفا، كان خيرونيمو زوج الأخت الأصم الأبكم حارس الفنار.

دخلت إستير في كنف المسيحية للمرة الثانية، رويداً رويداً تعافت بمساعدة إليفيرا الودودة، وتعلمت منها أيضاً كيف تربي الخنازير الإيبيرية، وماذا تأكل، وكم هي فضولية وذكية. تعلمت إليفيرا أيضاً لغة الجسد الخاصة بهم، وكيف تروّض الخنازير، من خلال عصا ملائمة، لتكن دائمًا على يمين العصا، ولا تنحرف عنه. عموماً أوقفتها إليفيرا على رجلها وعلَّمتْها أشياء كثيرة سواء في الحياة أو عن الخنازير...

نصحت إستير أسرتها بتربية قطيع من الخنازير الإيبيرية في توريه دي مورموحون، حيث لم يكُن هذا الأمر مربحا فقط؛ وإنما يبرهن للجميع أن كمال مسيحيتهم، ولن يكون هناك داعٍ لأن يشرحوا لأي شخص لماذا يغسلون أنفسهم وبيتهم يوم الجمعة أو يفصلون عرق النسا عن اللحم.

خاطبت إستير أمها سارة التي كانت صامتة من شدة تدافع الحقائق عليها ومن تأثيرها على حياتها قائلةً: "إذا امتلكنا قطيع كهذا يا أمي، لن يستطيع أحد أن يصطنع مشكلة معنا، كوني معتمدة عليَّ. لقد تعلمت الكثير عن إليفيرا، وأستطيع أن أعتني بهذه الخنازير، بشرط أن تُعِدُّوا لي زريبة"

وبهذا عادت إستير ابنة "يودا" إلى أسرتها ولكن بعد أن اعتنقت الكثير من العادات المسيحية فصارت متنصّرة وتربي الخنازير؛ بل وتنصح أسرتها

بتربيتهم حتى يؤكدوا للجميع أنهم اعتنقوا المسيحية بحق، فلا يتعرضوا لأي مضايقات.

وتصور الرواية مشاعر الأسرة اليهودية التي ترى ابنتها ترعى الخنازير وتنخلع عن أصولها اليهودية، ويغيرون اسمها إلى بياتريس، من خلال المشهد الروائي التالي الذي تتحدث فيه إستير إلى أسرتها:

(״אני, כמובן״, מיהרה להוסיף, ״לא אכלתי שום חזיר. אכלתי רק מהצומח והרבה לחם שאופים שם, בטריפה, קצת דומה למצות של פסח, רק עבה יותר״.

שקט השתרר בבית הקונברסוס. גם אסתר הרגישה שדיברה יותר מדיי, אך למרות זאת הוסיפה:

״החזירים הם חיות מאוד ממושמעות. הם גם חזקים ולא תופסים מחלות. הם חיות חכמות ומשעשעות״.

״ומה הן אוכלות?״ שאל יודה. סוף- כל – סוף הפר את האלם שלו, ועיניו אדומות מכעס.

״הכל״, אמרה אסתר. ״עצים, שיחים, בשר. הכל״.

״גם לבנדר?״ שאל יודה והיה נדמה שעוד רגע יחבוט בבתו.

״לא, אל תדאג, אבא. הלבנדר יהיה מר לחזירים. אני יודעת להשתלט עליהם ויכולה לקחת אותם לרעות רחוק מהבית, ולהחזיר אותם, ליתר ביטחון, רק אחרי ששבעו״.

יודה הניע בראשו שמאלה וימינה לשלילה, אך שרה דווקא היתה מרוצה. יהודים או נוצרים- כל הילדים שלה אצלה, ובחיים. מעז יצא מתוק. אסתר גם למדה מקצוע בזמן שנעדרה, והמקצוע הזה הוא ערובה מצוינת לאי- יהדותם. היה נדמה לה, לשרה, שהרע כבר מאחוריה, וכי עכשיו עליה להיערך לחיים חדשים. ביום ראשון הקרוב תיערך המיסה החגיגית, וגם יטבילו את אסתר לנצרות בפעם השלישית מאז שנחטפה.

הכומר דה מנדוסה רצה לשנות את שמה מאסתר למרייה, אבל שרה הפצירה בו ששמה יוחלף לביאטריס, שם שהיה מקובל גם אצל הקונברסוס) [٢٣].

"أسرعت وأضافت: "أنا بالطبع لم آكل أي خنزير. كنتُ آكل النبات فقط، والكثير من الخبز. إن الخبز الذي يخبزونه هناك في جزيرة طريفا يشبه قليلًا خبز عيد الفصح لكنه أكثر كثافة".

ساد الصمت ببيت المرتدين. شعُرت إستير أيضاً أنها تحدّثت أكثر من اللازم، لكن على الرغم من ذلك أضافت: "إن الخنازير حيوانات منضبطة، هي أيضا قوية ولا تحمل الأمراض، هي حيوانات ذكيَّة ومسليَّة".

سأل يودا وأنهى صمته وعيناه محمرَّة من الغضب: "وماذا تأكل؟""

أجابت إستير: "كل شيء: الأشجار والشجيرات واللحم، كل شيء".

سأل يودا وكان يبدو أنه بعد لحظة سيضرب بنته: "حتى اللافندر؟""

أجابت: "لا يا أبي، لا تقلق سيكون اللافندر مر بالنسبة لها. أعرف كيف أسيطر عليها، ويمكنني أن آخذها كي أرعاها بعيداً عن البيت، وأعيدها مرة أخرى، لمزيد من الأمان بعد أن تشبع".

حرّك يودا رأسه يميناً ويساراً رافضاً، لكن سارة تحديداً كانت راضية. يهود أو مسيحيون كل أولادها بجوارها وعلى قيد الحياة. لكن رب ضارة نافعة. تعلمت إستير مهنة في الفترة التي غابت فيها، وهذه المهنة كانت ضمانة جيدة لعدم يهوديتهم. كانت تظن أن الشر يقف وراءها، وآن عليها الآن أن تستعد لحياة جديدة. سيقام القداس الاحتفالي يوم الأحد القادم، وستُعمَّد إستير للمرة الثالثة منذ أن اختُطِفَتْ.

أراد الراهب دي مندوسا أن يغير اسم استير إلى ماريا، إلا أن سارة توسلت إليه أن يغير اسمها إلى بياتريس، وهو الاسم الذي كان شائعًا عند المرتدين".

وفي نهاية القصة كان مصير إستير هو عزلها عن الأسرة بسبب رائحة الخنازير المنبعثة منها فقامت ببناء غرفة مخصوصة لها جدار مشترك مع

([٢٣]) הרומאן המצרי، עמ' ٩٤ - ٩٥.

البيت، وشاهدها ثلاثة فتيان، وهي تمنع الخنازير من الاقتراب من المقابر اليهودية رغم أنه في تلك الأيام ظهرت شائعات بخصوص الفائدة الكبيرة للنباتات التي تنمو في المقابر اليهودية بالنسبة للخنازير، فأبلغوا محاكم التفتيش فقاموا بسجنها والتحقيق معها حتى حكموا عليها بأن تعيش في أسرة مسيحية لمدة ستة أشهر، فتبرأت منها العائلة:

(אולם אז נפל דבר בבית הקונברסוס. יודה לא היה יכול לשאת יותר את נוכחותה של בתו ביאטריס, בגלל ריח החזירים הנורא שדבק בה ובבגדיה. לשווא קירצפה האם את גופה של הבת בסבון הלבנדר של המשפחה. לשווא התיזה עליה מי ורדים. רגע אחרי שיודה היה פוגש את בתו, היה עושה תמיד תנועה ממעמקים, כאילו הוא עומד להקיא, וגופו הפיק צלילים קשים של מי שעולמו חרב עליו.

לבסוף, בלית ברירה, בנו בשבילה דייגו ופדרו בקתה, שהיה לה רק קיר משותף אחד עם הבית ושביל נוח יחסית הוביל ממנה אל הדיר- שתגור שם, שתישן שם, שתאכל ותטפל בחזירים, תרעה אותם ותשחט אותם...

בזמנים ההם הגיע רוב המידע שהיה לאנשים באמצעות שמועות, ולאחר הגירוש הגדול היו בתי- הקברות הנטושים של היהודים מקור לשמועות רבות ומשונות. אחת השמועות היתה שהצמחייה שצומחת בין המצבות היהודיות מעולה במיוחד לבריאותם ולחוסנם של חזירים, ומזינה אותם יותר ממרעה רגיל. ואכל רועי חזירים רבים נתנו לחזירים שלהם לפשוט עד בתי – קברות יהודיים, ולפעמים היה חזיר משתרע ונח לו על איזו מצבה. לעומת זאת אסתר נמנעה תמיד מלהביא את החזירים שלה לבית- הקברות היהודי כדי שיטעמו מהשפע, ופעם ראו שלושה נערים את אסתר בועטת בשלושה חזירים בזעם, עד שהיא כמעט מפצחת את ראשיהם, תוך כדי שהיא צורחת עליהם שלא יעזו יותר אפילו להתקרב לבית- קברות

יהודי, והנערים האלה מיהרו להלשין עליה סוף- סוף יצא המרצע מן השק. כך יצא שדווקא אסתר הביאה לטורי דה מורמוחון את האינקוויזיציה..

לשווא צעקה האם שרה שייקחו אותה במקומה, ויודה תפס ואחז את אשתו כשנפלה ואיבדה את הכרתה. הכומר דה מנדוסה שמע יללות מבית הקונברסוס, אך מה היה יכול לעשות؟) [٢٤]

"ولكن حينئذ حدث شيء في بيت المرتدين. لم يكن يودا يستطيع أن يتحمله أكثر من ذلك، وهو وجود بنته بياتريس، بسبب رائحة الخنازير الرهيبة التي التصقت بها وبملابسها. لم تُجدي محاولة الأم فرك جسد بنتها بصابون اللافندر الخاص بالأسرة. ولم تجدي محاولتها سكب ماء الورد عليها. بعد لحظات من مقابلة يودا لابنته، كان يأتي بحركة من أعماقه، كما لو كان على وشك التقيؤ، وأحدث جسده أصواتا قاسية كمن فسدت دنياه.

في النهاية، وبدون أي اختيار، بنى دييجو وبيدرو كوخًا من أجلها، كان له حائط مشترك من جانب مع البيت، ومن جانب آخر طريق ممهد نسبيًا يقودها إلى الزريبة، تسكن هناك وتنام هناك، وتأكل في الخارج، وتعتني بالخنازير وترعاها وتذبحها...

في تلك الأوقات، وصلت معظم المعلومات للناس من خلال الشائعات، وبعد الطرد الكبير كانت مقابر اليهود المهجورة مصدراً لشائعات كثيرة وغريبة. كانت إحدى هذه الشائعات أن النباتات التي تنمو عند المقابر اليهودية جيدة لصحة الخنازير ومناعتها، وأنها تغذيها أكثر من مرعاها الطبيعيّ. لذلك سمح رعاة الخنازير بالانقضاض على المقابر اليهودية، وأحيانًا كان الخنزير يتمدد وينام على أحد شواهد القبور. في المقابل، تجنبت إستير إحضار خنازيرها إلى المقابر اليهودية كي تطعمها، وذات مرة رأى ثلاثة فتيان إستير تضرب خنازير غاضبة، حتى كادت تكسر رءوسها، وهي تصرخ في وجهها ألا تقترب أكثر من

(٢٤) הרומאן המצרי، עמ' ٩٥ - ٩٧.

المقابر اليهودية، فأسرع هؤلاء الفتية بالوشاية بها. وفي النهاية اتضح ما كان خافياً. اتضح أن إستير جلبت محاكم التفتيش إلى توريه دي مورموحون..

صرخت الأم سارة بلا جدوى كي يأخذوها بدلًا منها، وأخذ يودا يمسك بامرأته عندما سقطت وفقدت الوعي. سمع دي مندوسا أصوات النواح القادمة من بيت المرتدين لكن ماذا كان بإمكانه أن يفعل؟"

وهكذا كان مصير إستير هو العزل عن الأسرة وقبض محاكم التفتيش عليها حتى بعد أن أعلنت كل الولاء للمسيحية وقامت بتربية الخنازير.

وفي نهاية هذا الفصل، يمكن أن نستنتج بعض النتائج فيما يتعلق بالمضامين التي تحويها الرواية المصرية، وهي كما يلي:

- اتسمت المضامين في الرواية المصريَّة بالتنوُّع الشديد، فعلى مدار الرواية تطرقت الأديبة إلى الكثير من الموضوعات التي يمكن القول إنه لا رابط بينها.
- دمجت الرواية المصرية بين التاريخيّ والخياليّ في بوتقة واحدة؛ إذ نجد في الفصل الواحد أحداثًا واقعية؛ مثل: الحركات التابعة للصهيونية في مصر، كحركة هاشومير هتساعير والنشاط الصهيونيّ في مصر، وثورة يوليو ١٩٥٢م في مصر وموقف اليهود منها، والخلافات بين أعضاء الكيبوتس القدماء والأعضاء الجدد والاتهامات بمعاداة الصهيونيَّة، وحادثة طرد اليهود من إسبانيا وتنصُّر الكثير منهم وممارسة اليهودية في السر بعيداً عن أعين الحكام في إسبانيا، وغيرها من الأحداث التاريخية الواقعية التي دُمِجت مع خيال الأديبة في سرد قصة حياة عائلة كاستيل.
- تطرّقت الرواية إلى بعض مظاهر المعاداة والسخرية تجاه الصهيونية، ويتمثل ذلك في شخصية "أنيت سنوآه"، التي وضّحت الرواية علاقتها بدولة إسرائيل والصهيونية والتي كانت ترفض الهجرة إلى إسرائيل وتعد مصر وطنها، وكذلك شخصية العمراوي اليهوديّ المصري المنبهر بالحضارة المصرية والذي عاش كل الأحداث السياسية في مصر وشارك فيها لاعتباره نفسه مصريًا.

وكذلك في شخصية "آديل" التي كانت ترى في الصهيونية والشيوعية والاشتراكية والكيبوتسات وغيرها ما يشبه الصراصير التي لابد من إبادتها حتى يبقى هناك مكان للحب والهدوء في العالم.

- نلمح جانبًا نسويًا في الرواية يتمثل في الكثير من الشخصيات النسائيَّة التي سيطرت على معظم القصص والأحداث داخل الرواية، كما رأينا في ثنايا الرواية حديثا عن قهر المرأة في الرواية ومعاناة المرأة العاملة، وحتى في رمزية المرأة المريضة أو الميتة داخل الرواية، وكذلك في قصة طرد اليهود من إسبانيا نلمح جانبًا نسويًا يتمثل في التضحية التي تقدمها إستير ابنة يودا وسارة من أجل عائلتها؛ إذ قبلت أن تصير جارية وتترك أهلها حتى يعيشوا سالمين.
- يمثل مصير إستير في قصة "عام الخنزير" نموذجًا روائيًا قدّمته الأدبية لمصير أي يهودي يقبل التنصُّر ويندمج في الحياة المسيحية، فقد أصبح مصيرها هو ارتداء عباءة الخزي والعار في الكنيسة.